المنهج النقدي والتحقيق العلمي
عند المستعرب الإسباني
عبد الكبير الفقار
المغرب

مقدمة:

قبل أن أشرع في مقالتي أود أن أشيد بعمل الأستاذ المترجم عبد الواحد أكمير الذي أخرج كتاب:" التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية "للباحث الإسباني أمبروسيو هويثي ميراندا، وقدمه إلى القراء والباحثين في لغته العربية، وأشير أيضا إلى معاناته في ترجمة هذا المؤلف، إذ أنه كان بين الفينة والأخرى يخرج عن الاشتغال بالترجمة ليجد نفسه في حقل معرفي آخر، ويتعلق الأمر بالتحقيق العلمي، إذ أرقه في كثير من الأحيان الوقوف طويلا عند تحقيق – وأقول تحقيق لا ترجمة– أسماء الأماكن الجغرافية، من قلاع وحصون ومدن وأودية أندلسية، ووقوفه أيضا عند تحديد وضبط المصدر الذي يقصد إليه الكاتب (A.H.M)، وبخاصة إذا علمنا أن هذا الأخير يكتفي بذكر أسماء المؤلفين دون عناوين مؤلفاتهم، وتعريجه كذلك على ضبط وتحيين هوامش الكتاب، وفي هذا ما فيه من جهد يدركه من خبر بعضا من قضايا التحقيق العلمي.

وقد كنت عزمت على دراسة الكتاب في بادئ الأمر، لكني عدلت عنه في غياب النص الأصلي في لغته الإسبانية. أما المؤلف (AMBROSIO HUICI MIRANDA) فلا نبالغ إذا قلنا أنه كان من ألمع المؤرخين الذين خدموا تاريخ الغرب الإسلامي. حتى وجدنا الكاتب الفرنسي (Gaston Deverdum) يقول عنه:

« لم يفت الأوان إذا أخبرنا بالعمل القيم الذي أعده (A.H.M)، والذي جعل منه أحد أحسن من خدم تاريخ الغرب الإسلامي... وتشبت بترجمة التاريخية العربية بدقة نادرة» ،كما يقول عنه أيضا :«وقد أصبح من أحسن العارفين بلغة التاريخية العربية بالغرب الإسلامي، وكل ترجماته تكون مصاحبة بتحقيقات وبالخصوص مصاحبة بفهارس محكمة الوضع، وأن الرجوع إليها أصبح لازما لكل من يهتم بتاريخ الأندلس والمغرب»[1]، وألفينا أيضا الكاتب الإسباني Joaquin Nieto Moreno يشيد بأعماله ويثني عليه كثيرا، وبخاصة حين ترجمته لنص ابن عذاري: "البيان المغرب" الذي نشر بمجلة Hesperis سنة 1959[2].

وفي هذه المقالة، آثرنا أن نلقي الضوء على بعض الخطوط العريضة للمنهج النقدي والتحقيق العلمي عند هذا المستعرب، معتمدين في ذلك على كتابه: "التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية"[3] في ترجمته التي قدمها الأستاذ عبد الواحد أكمير، وعلى مقالين اثنين نشرا بمجلة هسبريس[4] (Hesperis) الأول وسمه بعنوان: "روض القرطاس والمرابطون دراسة نقدية"[5]، (EL RAWD AL-QIRTAS Y LOS ALMORAVIDES- ESTUDIO CRITICO)

والثاني: "خروج المرابطين من الصحراء، وحكم يوسف بن تاشفين، توضيحات وتصويبات"[6].

LA SALIDA DE LOS ALMORAVIDES DEL DESIERTO Y EL REINADO DE YUSUF B. TASFIN-ACLARACIONES Y RECTIFICACIONES

- المنهج النقدي والتحقيق العلمي لدى (A.H.M):

إذا كان كتاب "التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية" أوفى عمل في تقدير الأستاذ المترجم، تناول الحياة السياسية في العصر الموحدي، وإذا كان (أمبروسيو هويثي ميراندا) (A.H.M) في هذه الدراسة مصابا ب"إرهاص الموضوعية"، على حد تعبير واضعي الطبعة الإسبانية الجديدة من الكتاب، فإن القراءة الفاحصة لهذا الكتاب تنبئ عن منهج نقدي تاريخي دقيق، اعتمد الاستقراء والاستنباط ليصل إلى الحدث التاريخي الموضوعي العلمي، والتاريخ الزمني الصحيح.

وقد تمكن الكاتب من الاستقراء بفضل تمكنه من عدة لغات، سمح له هذا أن ينفذ إلى ما كتب عن تاريخ هذه المرحلة بالغرب الإسلامي، وإذا كان إلمامه بمجموعة من اللغات من المحاسن، فإن هذه الأخيرة قد ألقت به أمام جملة من المصادر، اقتضت منه قراءتها كثيرا من التمحيص والتدقيق مما جعل منهجه النقدي التاريخي يصطبغ بميزات وخصائص يمكن تلخيصها فيما يلي:

- **التمحيص والتدقيق بغية التصويب والتوضيح:**

أسس الكاتب (A.H.M) منهجه على التمحيص والتدقيق الشديدين، فلا يتعرض لحدث تاريخي إلا وقد وضعه موضع التشكك حتى يورد أغلب الروايات التي تحدثت عنه في مصادر مختلفة لغة وتأليفا، وبعد قراءة متأنية وفاحصة فيما بين يديه، يستنبط ما يراه هو الصحيح أو أقرب إليه، وقد يكون هذا الصحيح رأيا عرض له من قبل في إحدى المصادر التي اعتمد عليها، وقد يكون ما استنبطه هو، اعتمادا على معطيات درج على الاستناد إليها وحاول التوسل بها، ويمكن حصر هذه المعطيات في الآتي:

- المعطى الجغرافي:

اعتمد الكاتب (A.H.M) إلى جانب المعطيات الأخرى، المعطى الجغرافي في كثير من استنتاجاته وانتقاداته الدقيقة لبعض المصادر العربية والمسيحية على حد سواء[7]، وقد مكنه اعتماد هذا المعطى من تفنيد كثير من الروايات التي كانت تتميز بالمبالغة أحيانا، وبالحيف والمغالطة حينا آخر، وبالتالي اعتماد رأي يراه أقرب إلى الصواب، وإن كان يجده في ثنايا بعض المصادر، لكن يعوزه شيء من البرهان وللتدليل على هذا نسوق هذا النص، يقول (A.H.M): «بعد انسحاب الفونسو نحو طليطلة، التجأ (دون دييغو) إلى حصن الأرك، وكان عددهم يقل بكثير عن خمسة آلاف» ثم يعلق على هذا الرقم قائلا: « الرقم الذي تقدمه أكثر المصادر العربية اعتدالا، ذلك أن الأمر يتعلق بحصن حدودي صغير، بني أصلا ليستوعب حامية من بضع مئات من الرجال» ينظر التاريخ السياسي ص 360.

- المعطى السيكولوجي للأشخاص:

اعتمد الكاتب (A.H.M) في كثير من تحليلاته واستنباطاته التاريخية، المعطى السيكولوجي للأشخاص، إذ بواسطة توسله بهذا المعطى جعله يشكك في كثير من الأحداث والتواريخ والأمثلة على هذا كثيرة مبثوثة في الكتاب لا يجد القارئ المتأمل

كبير تعب في تعقبها والوقوف عليها، ففي معرض حديثه عن مواجهات الموحدين مع تاشفين و(Reverter Berengner):

«ورغم أنها لم تفض -أي الحرب- بين المرابطين والموحدين إلى نتيجة حاسمة فإن سكوت البيدق عنها -مع ما عرف عنه من تملق للموحدين- يؤكد لنا أنها لم تكن في صالح هؤلاء»[8].

ولعل خير ما نمثل به هذا المعطى هو حديث (A.H.M) عن المهدي بطريقة مسهبة، توحي بأننا حيال ناقد من نقاد الفكر الإسلامي، يقول: «ورغم أن ابن تومرت سلم بأن محمدا هو خاتم الأنبياء وأفضل المرسلين، فإنه اعتبره كغيره من البشر، له من صفات الألوهية شيء، وبالتالي لم يكن بالإمكان جعله كما فعل مع عيسى، يبعث قبل يوم الحساب... وبالتجائه إلى أسطورة المهدي سليل الرسول الذي ينير الله طريقه... تبنى البدعة الشيعية التي تقول بعصمة الإمام، ورفض المذهب السني الذي يحث على الاجتهاد...»[9].

ثم يتحدث عن بعد ذلك عن تحفظ المؤرخين الأوروبيين في قبول ما ورد في المصادر العربية، بشأن تسليم أتباع ابن تومرت بمهدويته، وأنهم يعتبرون ما قيل في الموضوع مجرد خرافات وأساطير ابتدعها منتقدوه، ليعلق على هذا بقول ناقد: «غير أننا نرى أن سكان تلك الجبال الوعرة ببساطتهم وجهلهم، بل وبدائيتهم ما كانوا ليترددوا في تصديق كل ما جاء به ابن جلدتهم، لكن الأهم من هذا كله والذي ترك دون تحليل هو مدى قناعة ابن تومرت نفسه بمهدويته»[10].

غير أننا ونحن نتحدث عن هذا المعطى السيكولوجي، تطالعنا إشارة تحاول هي الأخرى أن تقدم تفسيرا سيكولوجيا أو نفسيا للكاتب نفسه (A.H.M)؛ حين يخوض في مثل هذا الحديث وحين يقارن بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين المهدي، ويتعلق الأمر بتعليق للمترجم عبد الواحد أكمير حين يقول: «لا نستغرب أن يضع المؤلف، وهو شخص بدأ حياته يسوعيا ليصبح فيما بعد اشتراكيا مثل هذه المقارنة بين الرسول الله صلى الله عليه وسلم وشخص مبتدع مثل ابن تومرت»[11].

وقد اعتمد في هذين المعطيين على الاستنباط العقلي.

- الاستنباط العقلي:

من خلال قراءته المتعددة يستطيع الكاتب (A.H.M)، أن يستشف مدى مصداقية الخبر من عدمها، وذلك اعتمادا على المقابلات والمعارضات، وتتبعه للسياقات التاريخية، وهذا الأمر من صميم منهجية التحقيق العلمي؛ يقول: «ويقدم لنا مؤلف التاريخ العام تفسيرا آخر لهزيمة الفونسو في معركة الأرك يصعب تصديقه، فقد قاتل (دون دييغو لوبيث دي هارو) (Don Diego Lopez de Haro) وغيره من النبلاء حسبه[12] دون حماس بعد ما سمعوا الملك وهو يقول: إن فرسان منطقة الجوف لا يقلون شجاعة وإقداما عن فرسان قشتالة. إن هذا التفسير لو كان صحيحا حقا لما بقي (Don Diego) متمتعا بالعطف والرضى الملكي بعد المعركة، لذا فإن ما ذهب إليه المصدر المذكور اختلق في نظرنا للتخفيف من مرارة الهزيمة»[13].

وقد أفضى به منهجه هذا (التمحيص والتدقيق) إلى اهتمامه بكثير من القضايا أذكر منها:

- اهتمامه بتحقيق أسماء الأمكنة وجغرافيتها[14].
- تشكيكه في كثير من الوقائع وعدم تسليمه بها[15].
- انتقاده وتخطئته لبعض المؤرخين الكبار[16]. فلم يشفع لابن خلدون قدره ومكانته من الموضوعية أن ينتقده ويرد بعض كلامه، وإن كان يثني عليه في كثير من الأحيان[17]، و لم يشفع لبروكلمان (Brockelmann) في موسوعيته في تاريخ أدبه

(Der Arabischen Literatur Geschichte)، حينما يرد كلامه في معرض النقد على صاحب روض القرطاس، إذ صرح (A.H.M) بأن بروكلمان يحاكم ابن أبي زرع من غير حق، حين يتهمه بانتحال (Plagio) كتاب البيان المغرب لابن عذاري[18].

– اهتمامه الكبير بالتعليقات والحواشي: إذ كان (A.H.M) يرد كثيرا من الآراء المبثوثة في التعليقات والهوامش وخاصة تلك إلى وضعها الأوربيون من أمثال دوزي (Dozy) و گولد زهير (Gol Zheir) وليفي بروفنسال (Levy Provençal) وبروكلمان (Brockelmann) وغيرهم.

ومن اهتمامه أيضا بالتعليقات والحواشي: إحالته على المصدر العربي وعلى ترجمته لهذا المصدر[19]: لا لشيء إلا للاضطلاع على تحقيقاته وتعليقاته العلمية.

– توخيه الوضوح ونأيه عن العبارات الغامضة: وعباراته في هذا الشأن كثيرة، فقد تخللت تعليقاته سواء تلك التي أودعها كتابه "التاريخ السياسي" أو مقالاته[20]، فكثير ما كان يعبر بعبارات من مثل:

– يعرض ذلك بوضوح[21].

– المؤلف الفلاني يشرحها بوضوح[22].

– الكتاب الفلاني كان حسن الشرح[23].

- **التثبت الشديد قبل إصدار الأحكام:**

الحق أن (A.H.M) في منهجه النقدي قد وقف كثيرا في ثنايا كتابه هذا "التاريخ السياسي" عند الأحداث والتواريخ التي يسوقها "روض القرطاس"، فانتقدها ومال إلى من ينتقدها كصنيع دوزي (Dozy)[24]، بل أفضى به هذا الهاجس النقدي إلى تخصيص مقال في هذا الشأن سبق أن أتينا على ذكره وهو "روض القرطاس والمرابطون، دراسة نقدية".

(EL RAWD AL-QIRTAS Y LOS ALMORAVIDES –ESTUDIO CRITICO)

كما أشار في كتابه السالف الذكر أن الروض يفتقر للموضوعية، وقد اعتمد عليه على الرغم مما ورد فيه من أخطاء وأساطير، ورغم خلطه المستمر بين الصحيح والزائف[25].

وعمله على نشر كتاب "روض القرطاس" لابن أبي زرع، فيه دلالة على أهميته الكبرى، إذ استوى في متابعته وتناوله المغاربة والأوربيين، وكذا طبعاته الست باللغة العربية وترجماته الخمس إلى اللاتينية والألمانية والبرتغالية والفرنسية والإسبانية[26].

ففي مقاله السالف الذكر يقدم (A.H.M) دراسة نقدية لروض القرطاس بالتحليل ومحاولة التحقق والتثبت من قيمته التاريخية، وكذا دراسته وأهمية أخطائه، وخصائص كاتبه التي تظهر من خلال رواياته ومدى الصدق الذي تستحقه المصادر التي اعتمد عليها. يقول (A.H.M) في معرض نقده لروض القرطاس: «... وفي كتابي "التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية خصصت حقلا واسعا للاختبار والتحقق من سلطة روض القرطاس وصحة رواياته... وكذا احتكاكي بكُتّاب قدامى أكثر جدية منه، كالمعجب للمراكشي، والبيان لابن عذاري، وكذا ثلاثة من أخطر الكتاب المسيحيين، "روض القرطاس" يستحق مني هذا الحكم الذي أعود اليوم لأصدره»[27].

وبعد أن يسوق كلام الأستاذ (Hopkins) في مؤلفه (Medieval Muslim Goverment In Barbary) حول روض القرطاس يذكر أن مؤلفه يشمل حيزا كبيرا من سرد حياة الأولياء، (Hagiographia)، وبأن ملوكه غير حقيقيين، بل وأوصافه المثالية للمسلمين، وكل محاربيه هم أبطال، وكل أعدائه أنذال يعلق (A.H.M) على هذا -بنبرته الهادئة المعهودة- بقوله: «ومع كل هذا فإنه يسوق لنا بعض الأخبار التي ليست كلها غير حقيقية، فهو كباقي المؤرخين الأوربيين لم تتوفر لهم كثير من الوسائل التي تمكن من قبولها أو مسبقا مستندة على مصادر عربية، وبإمكان خطوط بنياتها العامة رفضها أن تترجم الحقيقة»[28].

بل ألفينا (A.H.M) في بعض المواضع يشير بصواب رأي ابن أبي زرع في روضه يقول: «هذه المرة إن روض القرطاس هو من معه الحق وقد أورد التاريخ الصحيح لوفاة أبي بكر مؤكدا ذلك بطريقة لا تقبل الرد، يشهد لذلك الدنانير المسكوكة باسمه إلى غاية هذه السنة 480» [29].

وختاما يمكن القول أن المنهج النقدي والتحقيق العلم الذي ارتضاه الكاتب (A.H.M) قد رسم طريقا جديدا ليس لقراءة التاريخ السياسي وتحقيقه فحسب، بل لإعادة قراءة وتحقيق تاريخ وآداب وفنون الغرب الإسلامي، ولعل أهم أداة توسل بها إلى ذلك - بالإضافة إلى المنهج- اللغة بألسنها المتعددة والمختلفة.

الهوامش:

---

[1]- مجلة Hesperis الصادرة سنة 1959، المجلد الأول، ص 460.

[2]- ينظر (AHTML) Joaquin Nieto Moreno.

[3]- صدر الكتاب سنة 2004 من القطع المتوسط في 650 صفحة، بإشراف المركز الثقافي الإسباني من منشورات الزمن.

[4]- للإشارة هذان المقالان لم يردا في بيبليوغرافية أعمال الكاتب (A.H.M) التي وضعها كل من Vicente Carmos Navaro و Emilio Molina Lopez والتي ساقها المترجم في آخر الكتاب المترجم.

[5] -El Rawd Al-qirtas y Los Almoravides, Estudio critico, Hesperis-Tamuda 1-Fasc 3-1960, P:513-541.

[6]- LA SALIDA DE LOS ALMORAVIDES DEL DESIERTO Y EL REINADO DE YUSUF B. TASFIN-ACLARACIONES Y RECTIFICACIOES, Hesperis 1959, p: 155-182.

[7]- يقول المترجم عبد الواحد أكمير: «فمع اقتناعه بأن التاريخ لا يمكن أن يتحرك إلا في الجغرافية يعيد -بناء على تضاريس المنطقة- تركيب المعارك» ينظر مقدمة كتاب التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، ص:5.

[8]- ينظر التاريخ السياسي، ص 110.

[9]- ينظر التاريخ السياسي ص 87.

[10]- المرجع نفسه.

[11]- المرجع نفسه، هامش 1.

[12]- هذا اللفظ (حسبه) قلق، إذ هو ترجمة للفظ الإسباني (Segun)، ونرى أن ترجمته بـm (وفقه) أحسن.

[13]- ينظر التاريخ السياسي، ص...

[14]- ينظر المرجع نفسه 67، هامش 107.

[15]- ينظر المرجع نفسه، ص 66.

[16]- ينظر المرجع نفسه، ص 69.

[17]- ينظر المرجع نفسه، ص 121، هامش 52.

[18]- ينظر: El Rawd Al - Qirtas y Los Al Moravides. Estudio critico. P: 513. ref 2

[19]- ينظر المرجع السابق، ص 513، هامش 1، ص 519، هامش 22-24.

[20]- ينظر مقالتاه السابقتان في كثير من هوامشهما.

[21]- ينظر El Rawd Al - Qirtas y Los Al Moravides. Estudio critico. P: 525 ref25

[22]- المرجع نفسه، ص519، الهامش 22.

[23]- المرجع نفسه، ص 519، هامش 20

[24]- أثناء حديثه عن موقف دوزي (Dozy) من كتاب روض القرطاس حينما نعته بالضعف، ينظر الصفحة السابقة من هذا البحث ص:... وينظر أيضا La Salida de Los Almoravides p.159-160

[25]- ينظر التاريخ السياسي ص 21.

[26]- صدر أربع مرات بفاس سنة 1885-1887-1889-1895، وطبعة واحدة أخرجت مع طوبوغرافيا حديثة بالرباط عام 1353/1936هـ في مجلدين اثنين، وأول ترجمة له بالإسبانية كانت سنة 1918، قام بها (A.H.M)، وانطلاقا من هذا العمل سيعمل على إخراج طبعة ثانية تحمل كل التصحيحات والتعليقات النقدية. ينظر:

"El Rawd Al - Qirtas y Los Al Moravides. Estudio critico. P 515 ref 1 .

[27]- ينظر El Rawd Al - Qirtas y Los Al Moravides. critico. P: 515

[28]- المرجع نفسه ص 516.

[29]- ينظر La Salida de Los Almoravides p.175